

الإسلام من وجهة نظر المسيحية

لويس جاردييه

ترجمة أ. د. حامد طاهر *

ظهر الإسلام بعد المسيح بأكثر من ستة قرون ، داعيا الى الله ، الواحد ، الخالق ، صاحب الأمر والنهى ، راجعا الى عقيدة ابراهيم ، ومبجلا الكثير من آباء التوراة وأنبيائها ، وموقرا يوحنا المعمدان (يحيى) ، وعيسى ، وأمه مريم ، ومنتشرا - فى أقل من مائة وخمسين سنة - من جبال البرانس بفرنسا إلى حدود السند بالصين .. وهنا تمثل لعلماء المسيحية كظاهرة خطيرة !

١- لقد رأى فيه يوحنا الدمشقى ، الذى عاصر فتوحاته الأولى - بدعة مسيحية من الأساس . ومع ذلك فعندما احتك علماء المسيحية بالعلماء المسلمين فى دمشق ثم فى بغداد ، لم يتجهوا إلى أن يضعوا الإسلام فى إطار «تاريخ الخلاص»

* رئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ، ومدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية بجامعة القاهرة .

وإذا كان قصدهم الأول أن يردوا على اتهامات الشرك النصبية على أسرار التثليث والتجسيد ، لكن القرآن يقضى بالآ يناقش المسيحيون إلا على النحو التالي { ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون } . وقد ظلت هذه النصيحة مراعاة . حتى أيامنا هذه ، هناك توصية معمول بها فى الإسلام بالآ يناقش المسيحيون قط فى شىء من عقائدهم أو أسرارهم .

وعلى أية حال ، فقد تمت فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ألوان من التعاون الوثيق بين المسيحيين والمسلمين ، الذين عملوا معا كفريق ، بناء على طلب الخلفاء ، لترجمة الفكر اليونانى القديم إلى اللغة العربية ، تلك الترجمات التى انعكس أثرها فى الغرب ، فى القرن الثانى عشر ، بل إن الأمر لم يقتصر على الترجمات اللاتينية لليونان عن طريق اللغة العربية ، وإنما تعداه إلى كبار فلاسفة المسلمين أنفسهم ، كالفارابى وابن سينا وابن رشد ، دون أن نغفل مقاصد الغزالى .

ثم جاءت الحملات الصليبية ، ومحاولاتها فى الغزو خلال القرون (١١ . ١٢ . ١٣) لكى تزيد من صعوبة الموقف . وهنا أصبح الإسلام عدواً للمسيحية . وانتشرت الخرافات هازئة بعقيدة العدو ، وفى هذا الجو العدائى المشحون قام الكسندر دى بون بترجمة القصة الوهمية " رواية ماهون " (= محمد) ترجمة نالت شهرة كبيرة : تقول القصة إن ماهون كان كاردينالاً فى الكنيسة الرومانية ، لكنه رفض السمو البابوى ، وقرء على الكنيسة ، وسكن الجزيرة العربية ، منشأ فيها -من التلفيق- ديناً جديداً . وقد أكد آخرون عقب عودتهم من إسبانيا - أن العرب الأفارقة كانوا يعبدون كلا من ماهون وأبوللو !

أكثر فطنة من ذلك ، حاول البعض أن يرى فى محمد متنصراً على يد الراهب النسطورى بحيرا (وهو شخصية تاريخية) : فقد دلف صاحب القافلة إلى كهوف جبل الحيرة ، لتلقى العقيدة المسيحية ، وقد فهم بصورة أو بأخرى تعاليم أستاذه ، التى تبناها مع ذلك على جهل منه ، ثم من محتواها استخراج سور القرآن .. وهذا "التفسير"

الذى كان يناقش حتى عصرنا هذا قد تم طرحه نهائيا ، وينبغى أن نكون متأكدين من الحالة الذهنية التى أدت الى تكوينه .

وحديثا جدا ، قمت محاولات حول لجميع مختصر لـ "الإسرائيليات" وهى تلك المصادر المشتركة أو المتسربة من اليهودية ، التى يتحدث عنها المسلمون أنفسهم ويستخدمونها بحذر شديد . وقد ذهب البعض إلى أن يستخرج منها أن (الحاخام اليهودى) الأكثر خرافة من (الراهب المسيحى) هو ذلك المعلم الذى هدى محمداً ، هذه المرة ، إلى اليهودية . وبما أنه قد حوله عن بحيرا ، فسوف يملأ عليه القرآن الأول : المصدر المفقود للنص الحالى !

إن واحد فقط من هذه التفسيرات العشوائية كفيلة بأن تقوض بناء أى بحث علمى خالص ، وتعكر صفاء أى لقاء أو اقتراب ممكن بين الطرفين . وهناك من المسلمين من حاول تفسير المسيحية على أساس "إنجيل برنابا" المزيف ، وقد رد عليهم مسيحيون بالراهب الأسطورى والحاخام اليهودى ، وهكذا كان يتهاوى أى جهد للحوار المتبادل وينتهى فى مجالات عقيمة .

وعلى المستوى العلمى ، ويقدر كبير من الموضوعية ، فإن محاولات الطعن فى نص القرآن لم تكن نادرة . ومن أكثرها حدة تلك المحاولات التى قام بها ماراكسى Maracci فى القرن الثامن عشر ، وهى تشهد بمعرفة عميقة (بحرفية) النص القرآنى ، لكنها لا تمثّل بالتأكيد أى تقدم ، على مستوى (فهم) النص .

وإذا عدنا إلى محاولات بيير الميجل Pierre le Venerable فى القرن الثانى عشر وجدناها- بعد كل اعتبار- أكثر حنقا . وينبغى أن نسجل الاحترام ، بل التعاطف العقلى ، الذى يحيط بدفاع ريمون مارتان Reymond Martin (الذى استخدم توماس الإكوينى أعماله) عن الدين المسيحى وكذلك بالنصرانى الكبير ريمون لل فى القرنين الثالث عشر-الرابع عشر . وقد كان ذلك هو العصر الذى تعددت فيه كراسى التعليم العربى فى جامعات الغرب .

وفى القرنين (١٥ . ١٦) جددت أخطار الغزو التركى لأوروبا المخاوف ، وجعلت

الإسلام عدوا مخيفاً للمسيحية ، ونحن نعلم الأحكام القاسية التى أصدرها مارتن لوتر ضد الإسلام . ومع ذلك ، فإن عددا من رجالات عصر النهضة الأوروبية ، من أمثال جان بودان J.Bodin فى محاورته التى جعلها تدور بين مسيحي ويهودى ومسلم ، قد أظهر إعجابا متعاطفا ، وإن لم يكن دائما واضحا ، بالنسبة للفكر الإسلامى . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المخطط الكبرى للسلام العالمى ، التى حلم بها جيمس بوستيل G.Postel كانت ترمى إلى أن تقوم على أساس وحدة الأرض المسيحية - الإسلامية . والحق يقال إن فى القرنين (١٧ ، ١٨) لم تتعد بعض الأعمال الجدلية وقصص الرحلات أكثر من أن تكون نوعا من الفولكلور والإغراب : سواء فى إطار كوميدى ، مثل " تركيبات " موليير ، أو فى شكل شبه خرافى ، حيث تتستر ألوان من النقد العنيف ، تارة ضد الكنيسة مثل مسرحية " محمد " لفولتير ، وتارة ضد الأخلاق الأوروبية مثل " الفارسى " لمونتسكيو .

وفيما عدا استثناءات قليلة ، فإن الثقافة الأوروبية الحديثة ، سواء كانت مسيحية أم غير مسيحية ، تفتقر إلى المعرفة الكافية بالدين الإسلامى . وما أغرب - فى هذا الصدد - تلك الملاحظات المبتسرة التى أبداه كارل ماركس عن الإسلام . فبالنسبة إليه : يعتبر دين البدو وأهل الصحراء داخلا فى إطار الجدلية المحتمية للتاريخ . ومع ذلك فإن معاصرة ارنست رينان ، قد بشر - فى دراساته عن ابن رشد - باتجاه أكثر تعاطفا ، واهتماما بمعرفة الإسلام من الداخل .

ثم هل ينبغى إضافة أنه فى القرن التاسع عشر قد قتل الإسلام للغرب كدين تعتنقه بلاد : إما متخلفة أو مستعمرة ! وليست الأحكام الخاطئة نادرة ، وخاصة تحت أقلام مؤلفين مسيحيين أم غير مسيحيين ، وهى نابعة من الجهل والاحتقار لكل ما يتعلق بقيم الإسلام الدينية ، وفى رأيهم أن الإسلام ليس إلا تعصبا يحط من قدر الإنسان الذى لا يمتلك ذرة من الأخلاق ! وهو ليس قادرا على مسايرة التقدم العلمى والتكنيكى ... وينبغى أن نستحضر فى أذهاننا تلك الأحكام الجائرة فى الماضى - وما يزال بعضها مع الأسف فى الحاضر - لكى نفهم الحدة فى هجوم كثير من المسلمين على

الغرب . والمقصود من الحدة المتزايدة هو الرد على الكتاب المسيحيين بما يلى : إذا كان لعيسى وشريعته الحق فى احترام المسلم ، فإن النصرانية ودعواتها ، والأحكام الملفة للعديد من المبشرين كاثوليك أو بروتستانت - تعتبر بالنسبة للمسلم دليلا على خداعهم لجمهور المسيحيين ، فيما يختص بشريعتهم الخاصة .

٢- ويمكن القول إنه فى القرن التاسع عشر وفى مطلع القرن العشرين ، وأيضاً ماعدا استثناءات قليلة ، وصل سوء التفاهم القديم بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى إلى ذروته . وقد ظلت المناقشات الحامية - مثل الحوار بين الشيخ محمد عبده وجابريل هانوتو- عبارة عن محاولة لضم طرفى قوس مشدودة بواسطة الدفاع التبريرى المتسم بالهجوم ، وحيث لا أعتقد أن المعرفة العميقة للآخر (= محمد عبده) كانت هى الهم الأول للمتحدثين .

فى ذلك الوقت كانت تتكون فى الغرب نهضة للدراسات الإسلامية : معاصرة لـ « نهضة » البلاد العربية . فتعددت الأبحاث اللغوية ، والتاريخية ، وطبعات كتب التراث . وفى البداية ، لم يحدث ذلك قط بهدف فهم أكثر صفاء للإسلام كما هو ، ولا بتزاهة كاملة . وسرعان ما أصبح الاهتمام بالموضوعية الحقيقية هو الغالب ، ويمكن الاستشهاد هنا بكثير من أسماء دارسى الإسلاميات الألمان ، والهولانديين ، والفرنسيين ، والإنجليز ، والإيطاليين ، والإسبان ، والأمريكيين . وقد فتح الكثير من هؤلاء الأساتذة الغربيين أعين الطلاب المسلمين ، الذين وفدوا ليتعلموا منهم ، على ماضيهم الغنى .

وهناك صفوة جديدة من المسلمين نشأت على الثقافة الغربية ، ولكنها قلقة من أحكام العلماء « الأجانب » على تاريخها- قد أصبحت تعاني من أمرين فى وقت واحد : العرفان للجميل للمستشرقين الذين يستلهمون أعمالهم ، والحذر المتشكك الذى يحيط بها فى البيئة الإسلامية .

ومن وجهة النظر التى تهمنى ، يستحق بعض المستشرقين المسيحيين إشارة خاصة : لأنه يبدو جلياً أن حيوية عقيدتهم المسيحية قد جعلتهم يستمرون فى تناول القيم

الإسلامية بكثير من التعاطف ، الجديد قاما . وسوف نستشهد هنا عن طيب خاطر
بأمثال : كانتول سميث (بروتستانتى) ومتجمرى وات (المجليكانى) ومن الكاثوليك :
آسين بلاثيوس (ت ١٩٤٤) ولويس ماسينيوس (ت ١٩٦٢) . ويمكن القول بأن كلا من
هذين الآخرين قد أنشأ مدرسة . وسوف أركز عليها قليلا :

إن منظور كل منهما ، بعد كل اعتبار ، مختلف قاما عن الآخر . ف آسين بلاثيوس
مأخوذ ، قبل كل شيء ، بالكثير من الاستجابات للقيم المسيحية التى يكتشفها فى
الإسلام . وحتى لا نذكر هنا إلا كتاباته الرئيسية فى مجالات الفلسفة ، وعلم الكلام ،
وأصول الفقه ، والتصوف ، فيما يتعلق باهن رشد والغزالى ، واهن حزم ، واهن عربى -
فإننا نجد بكثر من ملاحظاته لمفاهيم الفكر وحركاته التى يعتبرها متماثلة ، إن لم تكن
متطابقة . وقد يركز على دور المسيحيات (المصادر المسيحية) فى القرون الأولى
للإسلام ، وعلى الثروة التى أضافتها إلى تكون «العلوم الدينية» الإسلامية -لكى
يؤكد بالتالى تأثير الرواد المسلمين فى علماء المسيحية عبر إسبانيا كلها : اهن رشد
فى توماس الإكوينى ، اهن عباد الرندى فى چان دى لاكروا .

وعلى قدر معرفتنا ، فإن آسين بلاثيوس لم يذكر قط شيئا ، خلال كتاباته
اللاهوتية ، عن مكان الإسلام فى « تاريخ الخلاص » . لكن كل شيء يمضى أمام
عينيه كما لو كان الدين الإسلامى والدين المسيحى دينين أخوين ، وأن الأحداث
التاريخية وحدها هى التى عاقتهم عن اللقاء . ومن الحق أن يقال إن المقارنات التى
يستخدمها بكثرة ، وحتى فى التفاصيل ، تكاد تكون ، فى أكثر من مرة ، غير
حقيقية . ومناسبة الآراء المسبقة القديمة التى كانت كلها ، أو تقريبا كلها ، خاطئة حول
الإسلام ، يبدو أنه قد يكون لديه رأى مسبق ، فى المقابل ، يحاول أن يجد فى كل
قيمة إسلامية : معنى أو محتوى مسيحيا بصورة مباشرة . وإذن ، فحسبنا أن نعطى من
جديد للمصطلحات المستعملة معناها الخاص لئلا تفقد الترجمات المعطاة لها هذا
الارتباط أو المعنى المسيحى . وهكذا يبدو من المحتمل أن الفكر الإسلامى يتعرف على
نفسه بنفسه فى العرض الذى قدمه آسين بلاثيوس . وعموماً ، فقد أسهمت أعماله ،

على نطاق واسع، فى أن توقظ فى نفوس قرائه المسيحيين اهتماما متعاطفا ومنفتحا لما يتعلق بالفكر والأدب العربى -الإسلامى .

إن نقطة البداية فى العمل الرائع لماسينيون إنما تتمثل فى الإسلام ذاته ، وفى القيم الإسلامية فى طبيعتها الخاصة . ويعتبر تعاطفه من ذلك النوع الذى ينبغى على كل عالم أن يتزود به ، فيما يتعلق بموضوع ودراسته ، لأنه لا يمكن التوصل فيه إلى موضوعية حقيقية ، دون قدر قليل جدا من التعاطف العقلى . وفضلا عن ذلك ، فإنه يتسم بعرفان شخصى ، لأنه عبر القيم الإسلامية التى عاشها ، وتغنى بها الحلاج ، المتصوف الإسلامى الكبير ، أمكن لماسينيون أن يتلقى نعمة الهداية ، ويجد فى قلبه العقيدة المسيحية . وقد كانت هذه وجهة نظره فىمن يتصدى لدراسة الإسلام : وذلك الموقف - الذى ينبغى استحضاره -بعد نادرا لدى مؤرخى الأديان . ولقد تحفظ - أكثر من مرة - أمام المقارنات المتسرعه جدا التى كان يقوم بها آسبن بلاثيوس . أما بالنسبة له ، قد كان يتعمق القيم الإسلامية التى يحللها ، إلى أقصى درجات الاستبطان ، كما لو كان يعيشها مسلم ذو قلب مخلص ، ويشعر بها تناديه لكى يعيشها ... هذا إذا لم نبالغ فنقول : إنه كان يتجاوزها أحيانا فى معاشته لها . ولننصف أن حبه للغة العربية قد قاده إلى معنى سامى للغة ، وهو الذى ظهر فى عباراته الفرنسية نفسها ، وأصبح بالتالى معيار الاختيار فى تحليلاته .

ويظل هذا الموقف ، القائم على التعاطف الكامل ، دون أى اهتمام بالدفاع عن المسيحية بأى معنى من المعانى - يظل يمثل للكثير من القراء اقترابا صعباً . وسوف يجد المسلم المهتم أن عقيدته تحيا فى أعمال لويس ماسينيون ، أكثر من أعمال أى مستشرق غربى آخر ، ومن هنا كثرت الصداقات المخلصة التى كونها لويس ماسينيون مع مسلمين . لكن آخرين - من المسلمين كذلك - سوف يظنون قلقين من أن مسيحيا يتحدث عن دينهم . فهناك الاستبطان العميق لقيم الإسلام من جانب ، والتعاطف الصريح بالنسبة للتراث الشيعى من جانب آخر ، ثم السمو بالقيم المسيحية المدرك من بين السطور كل هذه الجوانب تعد عقبات ، تدع أكثر من مسلم مضطربا أمام

أعمال ماسينيون : «أين يريد أن يقودنا ؟» لاشك أنه من الصعوبة بمكان ، وخاصة بعد عدة قرون من الصراع الجدلى ، توافر الاطمئنان إلى النزاهة المطلقة فى متحدث .

لكن القارئ المسيحى لا يفاجأ فى الغالب . وأنا أعتقد أنه لا يمكن التعمق فى كتابات ماسينيون دون نظرة كافية فى مصادر اللغة العربية ، والتطور الداخلى لنمو القيم الإسلامية ذاتها . إن العديد من القراء المسيحيين يرون فيها - خطأ - محاولة لإضفاء قيمة غير متوقعة على الإسلام . والواقع أن لويس ماسينيون يعد مجددا واعداء للغاية فى مجال الدراسات الإسلامية ، وهو دليل ممتاز يمكن أن يصحب القارئ فى معايشة الإسلام من الداخل . لكنه فى الكثير الغالب يسئ إليه أولئك الذين يهاجمونه ، تماما مثل الذين يمتدحونه دون أن يكونوا قد فهموه . وغالبا ما يجهلون كيف يحددون جدله المختصر ، أو إطنابه العرى ، الذى أصبح من أشكاله المميزة فى التعبير .

وهذا واضح بصفة خاصة فيما يتعلق بمكان الإسلام فى التدبير الإلهى ، وهو لا يحدث إلا عرضاً ، وفى لمسات خاطفة ، فيما يمكننا أن نحجده من الإيحاءات فى كتابات ماسينيون . إن العرب - والمسلمين معهم وبعدهم - يُعدّون من « أولاد هاجر المنفيين » . ومحمد كان يسمى عند الضرورة « النبى السلبى » والإسلام « نحلة إبراهيمية » ... وتلك ضروب من الإطناب المسجوع والغامض ، لم يقصد ماسينيون قط إلى وضعها فى شكل كلامى ، لكنها من الممكن أن تظل مداخل لأبحاث قادمة .

٣- ولأنه فى نطاق لاهوت الكنيسة ، وشعب الله ، لا ينقطع تلمس التفكير المسيحى ، فإن المشكلة لا يمكن أن تعرض : ما هو الإسلام ؟ - والمسلمون لديهم بصورة تقليدية إجابة واضحة عن السؤال التالى : ماهى المسيحية ؟ ولابد من الاعتراف أن التبادل ليس حقيقيا . والمحاولات الحديثة التى تمت ، هنا وهناك ، مازالت أيضا مختلفة بقدر الإمكان .

وفى الأحكام التى تصدر عن الإسلام ، لا يوجد لدى رجل اللاهوت المسيحى أى مرجع آخر يعود إليه سوى تأمله واستدلالة اللاهوتى . لكنه إذا تحدث عن اليهودية ،

بعد مجيء المسيحية ، فإن النصوص الكبرى المستوحاه من القديس بولس سوف تكون دليله بكل تأكيد . ولا يوجد شيء من ذلك بالنسبة للإسلام ، الذى لا يمثل أمام عينيه إلا تناقضا . ويمكن للديانات الكبرى فى آسيا ، كالهندوسية والبوذية ، التى انبثقت قبل المسيح بقرون طويلة أن تذكرنا بما كان يسمى « عصر الفطرة » . وهذا ينطبق على الإسلام نفسه ، الذى انبثق بعد المسيحية بأكثر من ستة قرون . فهو ينتقى الكثير من القيم اليهودية - المسيحية ، لكن بعد أن يخرجها من مضمونها الأسمى ، المرتبط بالتوراة . وهو يدعو إلى « الله » القادر ، الذى لاتدركه الأبصار ، لكنه الحى الرؤوف ، القريب من الإنسان ، والذى يتوجه إلى البشر عن طريق الأنبياء . يتحدث الإسلام عن اليهودية والمسيحية ، ويحدد مكانتهما من وجهة نظره ، لكن محمداً لم يكن يهوديا ولا مسيحيا . إنه يدعو إلى الحقائق الكبرى ، على أساس الإيمان بالله الواحد الخالد ، صاحب الأمر والنهى . وهو يشير إلى حكايات التوراة التى لاتتفق فى شيء مع نص التوراة ، وإلى حكايات الإنجيل التى يطعن فيها علماء الإنجيل .

ما هو الإسلام ؟ أنا لن أحصى هنا بالتفصيل المحاولات الحديثة جدا للإجابة . والإجماع لم يتم . ويتعلق الأمر بالأعمال الجارية حاليا وتحليلها بدقة يعرضها لخطر الجمود ، وبالتالي يسيء إليها ، وهى ليست أكثر من طرق ومناهج للبحث . وسوف أقصر هنا على الإشارة إلى بعض الاتجاهات :

إن الإجابة القديمة والبسيطة جدا ليوحنا الدمشقى التى تقول عن الإسلام إنه بدعة مسيحية لها بالتأكيد أنصارها . وهناك من يحبون الرجوع إلى أعمال تور أندريه Tor Andrae (من أتباع لوثر) أو شانوان نو Chanoine Nau ، القائمة على إمكانيات المصادر المسيحية . وسيرى آخرون فى الإسلام ، ليس بدعة مسيحية بمعنى الكلمة ، وإنما كتعبير إستهلالى للمسيحية ، تلك المسيحية التى تجهل نفسها ، وحيث لا يعد نفى الأسرار إلسوء فهم شكلى . وسوف يتحدث آخرون عن « ارتداد يهودى » بمعنى مختلف جدا عن « النحلة الابراهيمية » التى اقترحها ماسينيون : فى حالة ما ستكون عليه الدعوة المسيحية ، غير المعروفة بصورة كافية فى مضمونها الحقيقى ،

كشامل حول الإقرار بالله الواحد ، وكاستغراق فى مطلق صيغ التوحيد .
وعلى العكس من ذلك ، سوف يؤكد عدة باحثين على « أبناء هاجر المنفيين »
الذين تحدث عنهم ماسينيون ، مركزين على الشكل اللاهوتى ، الذى يسير فى خط
مواز للخلاص ، مراد (أو مسموح به) من الله .

وسوف يجرى الحديث أحيانا عن النبوة الأمرة Prophétie directive
(للتصرف) التى تمتع بها محمد ، والتى أعطت للإسلام كدين مهمة أرضية للإكمال فى
إطار التبريرات الإلهية - أو أن الإسلام أخيرا يتمثل كتتزل روحى من اسماعيل ،
ليست له هذه المرة أى صلة بالخط الموازى للخلاص ، وإنما بميراث « المنفى » بكل
ثرواته ، و بكل حدوده وأخطائه أيضا .

وإلا فهل يعتبر الإسلام « عقيدة من عصر الفطرة » منبثقة فى بلاد لم تبلغها
الدعوة ، والتراث اليهودى - المسيحى ، ولكنها استطاعت أن تهضم ، بتجربتها
التاريخية ، معطيات كثيرة متفرقة من هذا التراث نفسه ، وأن تكون منها ، فى تجربة
دينية أولية ، تصوراً لله الواحد ؟ (وهذا الفرض يمكنه أن يوضح ، من ناحية أخرى ،
اللمسات الميتافيزيقية لـ « نور العقيدة » فضلاً عن اللمسات المذهبية لـ « نور
النبوة » الموهوب) .

وهنا أرجو أن يسمح لى بعدم تسمية أصحاب هذا الاتجاه أو ذاك ، وألا نناقش
شيئا من نواياهم .

إن كل اتجاه مما سبق يحاول أن يجيب على جانب من المشكلة ، لكن كلا منها
أيضا يصطدم بصعوبات أساسية . وفى الواقع - وسوف نكرر القول- ليس هذا كله
سوى محاولات اقتراح حلول لمعضلات تاريخية أو لاهوتية تظل بدون حل .

لكن هل تظل المهمة الأولى هى إعطاء الشخص المسيحى الذى يتساءل عن
الإسلام « ملاحظه كلامية » ؟ أليس من الأولى أن يجهد نفسه لمعرفة الإسلام فى
حقيقته ، وأن يأخذه فى تعقيداته كواقع يتضمن فى الوقت نفسه : عقيدة وثقافة
وحضارة ومجتمعا ؟

٤- على أية حال ، فإن ما يبدو لنا إمكان قوله : هو أنه لا يوجد لدى المسلم الصادق ، الذى يعبد الله الواحد ، الخالق ، العدل - أدنى قدر من المعرفة الواضحة عن عقيدة الخلاص (المسيحية) ؟ وهل نشير إلى رفضه أيضا لباقي « الأسرار » المسيحية ؟ وإذا أحسنا الظن قلنا إنه لا توجد لديه عن هذه الأسرار سوى معرفة غير كاملة ، وهو لا يرى فى كل عقيدة طيبة ، حسب تقاليد مؤكدة لديه ، إلا « تزويرا وتحريفا » .

وهناك فى الإسلام متطلبات واقعية للأخلاق الفردية والاجتماعية . وإذا اجتهد المسلم المؤمن ليكون مخلصا فيها (وهو أحيانا يتجاوزها) وإذا كان ذا قلب سليم ، وتاب من ذنوبه (تلك التوبة التى ما فتئ علماء الإسلام يدعون إليها) ، وإذا استجاب لنعم الخالق ، وأخلص فى ممارسة الفضائل الدينية ، فخشع لله ، واتقاه ، وصبر على المحن التى يطالب بها حنبلى صارم مثل ابن تيمية كمصدر للإيمان والشهادة - أفلا يمكننا حينئذ أن نعتقد بأن هذا المسلم ، على هذا النحو ، مشمول برحمة الله وفضله ، وأنه يتبع بصورة غير مرئية ، الكنيسة المرئية ، حتى ولو لم يدخلها ، وبالجمل : أفلا بُعداً تابعاً « على نحو ما » لشعب الله ؟ والنتيجة أنه سينجو ، ليس بسبب تبعيته الظاهرة للإسلام ، وإنما باعتياده - فى اعتقاده وفى حياته - على حقائق تجعل منها التقاليد الإسلامية ، أياً كان مصدرها ، ضرورة لازمة ، يمكنها أن تنير القلب وتسمو به .

ومن الصعب ألا نشير هنا إلى نص هام للفاطيكان (٢) « ... إن مصير الخلاص يضم كذلك أولئك الذين يؤمنون بالخالق ، وفى المقام الأول : المسلمين الذين يدينون بعقيدة إبراهيم ، ويهيمنون معنا بحب الله الواحد ، الرحيم ، وبالحساب القادم للبشر فى اليوم الآخر » وكذلك « بالنسبة إلى هؤلاء الذين لم يتلقوا الإنجيل حتى الآن ، وأيضاً أولئك الذين يعدون - تحت أشكال مختلفة - منتظمين فى شعب الله » .

إن الديانات الأخرى ، غير المسيحية ، تساهم ، من ناحية الطقوس والأسرار الدينية فى دفع مسيرة الإنسانية نحو العهد الجديد ، ورحمة الله اللانهائية التى يتوق

إليها الكثير من الناس لكي يحصلوا على النجاة . وربما كان من المهم جدا للشخص
المسيحي أن يتعرف على هذه الأجواء الدينية كما هي ، وما يقصد من ورائها ، بدلا
من أن يشغل نفسه بإصدار الأحكام عليها . ومن الواجب للغاية فتح باب التأثر
بتجربة البحث عن الله ، أكثر من محاولة تقييمها ، وإدانة من يختلف معنا أو
يعارضنا . وحينئذ ، ربما أمكن القيام بعمل جيد ، ومشارك بين المسلمين والمسيحيين ،
حتى ولو كان محدودا ، وذلك لكي يستحق المسيحيون اسمهم ، وتتمثل فيهم عفة
المسيح .